الصيني

قصة واقعية نالت الجائزة في مسابقة القصص الواقعية في مجلة (تروث ستوري) الانجليزية

بقلم احمد فتحي مرسي

كان والداى يعارضان أشد المعارضة فى إتمام دراستى وإكمال ثقافتى فى الجامعة ، فمنذ ما أعربت لهما عن رغبتى فى الالتحاق بتلك الكلية القريبة من المنزل ، وقفا أمامى حجر عثرة فى سبيل تحقيق هذه الأمنية !

ولقد كان منظر الفتيان والفتيات وهم فى طريقهم إلى الجامعة يبعث فى نفسى الحسد ، ويؤجج بين جوانحى نيران الغيرة . وطالما قالت لى والدتى وأنا جالسة إلى النافذة :

— إنى لا أحتمل أن أراك تذهبين إلى مثل هذا المكان يا روز ، فكم هو حافل بالغرباء ، وكم هو غاص بمن لا أخلاق لهم !

وكان والدى لا يقل عن والدتى اصرارا ، على الرغم من أنه كان يحرص على ألا يغضب وحيدته ، ولكن الالحاح كان من طباعى ، فلم أزل بهما حتى جعلتهما ينزلان على رغبتى ، وينصاعان لأرادتى

التحقت بالجامعة ، وسرعان ما توثقت عرى الصداقة بينى وبين زميلة مرحة ، من الأراضى الوسطى تدعى رث ليرى ، وكانت تدرس بكلية العلوم بالجامعة

وقد قدمتنى إلى صديق لها يدرس فى كلية الهندسة ، يدعى جون بارت ، وقد صادف هوى فى نفسى فتعلقته ، إلا أن هذه الصلة لم تدم طويلا ، فقد قدمنى بدوره إلى صديق آخر كان له أبعد الأثر فى حياتى ، إذ قلب نظامها رأسا على عقب ،

فطالما كان يحدثنى جون عن صديق له اسمه هارى لى ، كثيرا ما كان يصفه بالذكاء وينعته بالجد فيقول :

— أنفذ قريحة عرفتها يا روز ... حتى ليخيل إلى أنها تكبره بسنين عدة

وأصدقك القول أنى لم أحاول التعرف إلى ذلك الصديق الجديد ، فقد كان فى جون كل ما آمله من حياتى ، وكل ما أتمناه من عيشى ... وأخيرا شاء القدر أن يجمعنى بهارى ... وكان ذلك فى الربيع الباكر ، وكنت قد ضجرت رث ليرى إلى قاعة المحاضرات ، وكانت قد غصت بالمدعوين ، فلم يبق لنا مكان ما . وفجأة أخذت عيناى جون بارت ، وهو ينحنى لنا لصف انحناء ويدعونا للجلوس فى المقعدين اللذين أخلاهما هو وزميله قائلا :

— سأستند إلى الحائط مع هارى قليلا

ومضت برهة قبل أن أجول بعينى لأرى هارى ، ولكن وقع نظرى عليه أخيرا ، وكانت نظراته كلها مصوبة إلى ، وقد سرت فى جسدى رعدة خفيفة ، عندما سرحت الطرف فى وجهه قليلا فاذا به صينى الخلقة ...

وكان هارى أقصر قامة من جون ، ولكنه

كان مفتول العضل ، قوى الساعدين ، وكان مستنداً الى الحائط ، وهو ينظر الى كأنما يريد أن يلتهمنى بنظراته ، فمرانى الخجل وأدرت وجهى الى الجهة الأخرى ، ولكنى وجدت فى نفسى شعوراً غريباً يدعونى الى التحديق فى وجهه ثانية ، وكان كلما يلتقى النظران أحس بشعور من الرهبة يسيطر على نفسى ويملك على مشاعرى

وعندما انفرط عقد الحفل ، كنت أود أن أهرب من ذلك الاحساس المتسلط على قلبى ، ولكن جون ورفيقه كانا فى انتظارنا فلم أتمكن من الافلات . وكانت رث قد عرفت هارى من قبل فلم يبد عليها أى اهتمام ، أما أنا فقد صحبته الى المنزل

وقد حدثنى هارى فى الطريق عن المحاضرة ، وكان طريف القول ، جذاب الحديث ، دامغ الحجة ، يجمع الى ذلك بساطة فى التعبير ، وهدوءا فى النفس ؛ وهنا فقط أدركت صحة قول جون بارت « ان قريحته تكبره بسنين عدة »

ولما بلغنا المنزل دعانى الى نزهة خلوية بين الرياض ظهر اليوم التالى ترويحاً للنفس من عناء الأعمال ، واستجماما للفكر من النصب والملال ، فقبلت دعوته وانصرفت شاكرة

وعندما قابلنى هارى ظهر اليوم التالى حمل الى باقة من الزهر ، يفوح منها شذا العطر ، ويبدو عليها جمال التنسيق ؛ ثم قدمها الى قائلا :

— إنك زهرة ناضرة كهذه الزهور يا روز

ومنذ تلك النزهة أصبحت أرى شخصية هارى تتسلط على نفسى كل التسلط ؛ وكنت أعزو ذلك فى أول الأمر الى اختلاف جنسينا ، وتباين مشربينا ، وتباعد وطنينا ، على الرغم من أنه كان لايخلو من سمات الجمال . فما كان أجمل وجهه الهادئ وأروع ابتسامته الساحرة !

وتوثقت الصلة وكثر التلاقى ؛ على أن ذلك لم يكن يشغله قط عن استيعاب دروسه ، ومراجعة بحوثه ، فكثيرا ما كان يحدثنى عن آماله الواسعة وآرائه البعيدة ... كان يأمل أن يكون استاذا فى جامعة بكين فى القريب العاجل

وكثر خروجنا الى الرياض الناضرة ، وارتيادنا المروج الزاهرة ، بين حديثه العذب وسمره الممتع ... ولقد حدثنى مرة عن شجرة تفاح كثيرا ما اتخذ مجلسه تحت أفيائها المديدة ، وفى ظلالها الظليلة ، فسرنا اليها والقمر يرسل أشعته الفضية الى السهل فتفضض أرجاءه وتشيب نواصيه ... وان أنس لا أنس تلك الجلسة الهادئة تحت أفنان شجرة التفاح وبين أغصانها المتهدلة ... جلس كل منا يتأمل الآخر فى ضوء القمر المرسل ، وأخيرا افتر ثغره عن ابتسامة هادئة ثم قال :

— إنك مثل زهرة التفاح ياروز ، جمالا وروعة وسحرا

ومضت الأيام تتبع الأيام ، والشهور تقفو أثر الشهور ، وكل منا لا يزيد إلا تعلقا بالآخر ، وتشوقا للقياه ، إلى أن كانت ليلة مقمرة من ليالى الصيف ، خرجنا فيها معاً نتمشى فى ذلك الطريق الضيق خلف بناء الجامعة ، وإذا بهارى يضع يديه على كتفى فجأة قائلاً :

— روز .... إن حياتنا الآن تبدو كما لو كنا فى زورق ، وسط بحر زهور تهدهدنا أمواجه فى لين ، وبين ريح رخاء تدفعنا خفقاتها فى رفق ؛ أفترى يسير بنا الزورق إلى النهاية .... أم ينقلب الحال ،

فيضطرب البحر الهادىء وتثور الريح الساكنة ، فتنتهى الرحلة النهائية ؛ وتنقطع السفرة السعيدة ، وأدركت فى الحال ما يرمى إليه فقلت :

— ستسير إلى النهاية يا هارى ... إننى لا أعبأ باللجة وإن أزبدت ، ولا أحفل بالريح وإن عصفت ، ولا أخشى شيئاً ما دمت فى جوارك

— روز ! إننى أحبك ... وسأحبك دائماً وإن فرقت بيننا يد الدهر ، وفصمت عرانا مشيئة القدر ... إن هذا يعز على نفسى ولكنى يجب أن أذهب . إن الحوائل دون الزواج عديدة يا روز ، ولكن حبى للثانى يفنى ما تعاقب الجديدان ...

ولكن ذهابه كان فيه تحطيم قلبى ، وعدم الزواج كان فيه تحطيم آمالى ، فأبيت عليه ذلك ، وأخيراً قر عزمنا على الزواج مهما كلفتنا المجازفة

ولم يمض شهر على ذلك حتى كنا زوجين هانئين يضمنا منزل صغير على مقربة من الجامعة ، أفردنا فيه أنفسنا عن العالم ، وأخلدنا إلى عيشة الأمن والسكينة

وربما كان زواجى ساعقة انقضت على والدى ، فدارت بعقليهما ، خاصة وقد علما أنه شرقى المولد ، صينى الأصل . وقد بلغت الصدمة من والدتى مبلغاً أطار صوابها ، فانتقل بها والدى إلى مقاطعة ديفون شير وطننا الأول لتتناسى الحادث ، وتغفى عن ذكرياته المؤلمة

وقد ولد لنا طفلنا الأول فى شهر ابريل ، وكان السقام قد بلغ بى مبلغاً كنت أخال معه أنى أتأرجح بين الحياة والموت ؛ وكانت تعنى بأمرى مع هارى ممرضة تسهر على ، وترعى مضجعى

وفى اليوم الرابع بدأت أستروح نسمات الحياة وأردد أنفاس العافية ، فزال عنى السقام وثاب إلى الرشد ، فرحت أجول ببصرى فى أرجاء الغرفة . فاذا كل شىء على حاله وإذا بهارى واقف بجانب السرير ينظر إلى فى عطف ... وسمعت صوت الطبيب يقول :

— لقد زال عنها كل شىء الآن .

فبان السرور فى هارى وصاح :

— أملك تشعرين الآن ببعض التحسن يا روز . أترغبين فى رؤية طفلنا العزيز ؟ إنه فى خير صحة وأتم عافية ... ثم ذهب وعاد بعد برهة يحمل الصغير فى لفافته ، ووضعه بين ذراعى لحظة ، ثم رفعه قليلاً لأتبين وجهه فجمد الدم فى عروقى ... ليس هذا طفلى قط ... ما هذه الخلقة الغريبة ... وما هاتان العينان الضيقتان ... وما هذا الأنف الأفنى ...

وما هذا الشعر الملتوى ؟ كلا كلا ... إن فى الأمر خطأ ما... ليس هذا الدميم طفلى ... ثم صحت فى رعب:

— خذه عنى بعيداً أيها الرجل ! هذا فظيع . ليس هذا ولدى ... خذه عنى بعيداً ! فبان الألم فى وجه هارى ورفع الطفل عنى فى رفق

إنى لم أحلم يوماً أن يكون طفلنا كهذا الطفل الدميم ... وثقل علىّ الداء من أثر الصدمة ، وعرتنى رجفة سريعة من أعلى رأسى إلى أخمص قدمىّ ، فأسرعت إلى الممرضة ، وأخذت تسرى عنى وتخفف من لوعتى ... أما هارى فكان جامداً كالتمثال ، وبين يديه الطفل ؛ وكان وجهه شاحباً ، وعيناه غائرتين حزينتين ... فى لحظة واحدة تغير الحال وتبدل الأمر ، وأصبح ذلك الرجل وولده بغيضين إلىّ كل البغض ، حتى إنى لم أطق النظر إليهما ، فصحت :

— اذهب عنى بعيداً أيها الرجل ... إنى أمقتك من كل قلبى ... اذهب عنى بعيداً إنى لا أطيق أن أراك حيالى ، لا أنت — ولا طفلك الدميم ...

وأخذتنى ثورة من الغضب ، فأسرعت الممرضة إليه قائلة :

— الأفضل أن تذهب الآن يا مستر لى ، إنها لا تعى ما تقول الآن

ولكنى كنت أعى ما أقوله تماماً ، ولقد رأيت هارى ينكص على عقبيه تجاه الباب ، ثم أخذنى الاغماء ، وعاودتنى الغشية ... ومضى على ذلك أيام وأنا لا أكاد أعى ما يدور حولى ، وما يجرى بجانبى . وكل ما أذكر الآن أنى كنت أردد دائماً :

— أريد أمى ... أريد أمى ... فأسمع جواب هارى كأنه صادر من غور بعيد :

— حسناً يا عزيزتى ، سأرسل فى طلبها اليوم

وبعد أيام حضر والداى من (ديفون شير) ، ومضت أسابيع قبل أن أجد فى نفسى القدرة على السفر ... وأخيراً ثابت إلىّ بعض عافيتى وأخذنا أهبتنا ، وأعددنا عدتنا ، وحملنا الشمال وجهتنا

ونزلت بأرض الميلاد ، مجرى الصبا وملعبه ، فجددت أيام الطفولة المرحة ، وليالى الشباب السعيدة ، وحرصت على ألا تعود بى الذكريات إلى الخلف ، أو يأخذنى الحنين إلى السالف

ومضى على ذلك عامان ، وأنا سعيدة هانئة العيش ، إلى أن كان يوم وقعت فى يدىّ مجلة الجامعة ، ولا أعلم من أرسلها إلىّ ، ولكنى أرجح أن تكون صديقتى « رث ليرى » ... فأخذت أتصفحها إلى أن وقع نظرى فجأة على هذه الجملة التى غيضت الدم من وجهى :

« تأسف الجامعة كل الأسف لوفاة الأستاذ هارى لى ، الأستاذ بجامعة بكين بالصين ، وخريج الجامعة بعد حياة قصيرة قضاها فى خدمة العلم »

فملئت وجهى غمامة من الحزن ، وتساقطت الدموع على خدىّ ... وأصدقك القول أن موت هارى لى لم يكن شيئاً بجانب شىء آخر ... ذلك هو الطفل ... ماذا جد من أمره ؟ . وما مصيره اليوم ؟ الموت دون شك

* * *

وأقبل الربيع ، فصحبت والدى فى رحلة إلى جزائر المادير ، وهناك التقيت بجيرالد كيلاو ، وهو شاب انجليزى يكبرنى ببضع سنوات ، ويشتغل

فى تجارة الآلات ، فراعه جمالى ، وعلقته حبالى ، ورأيت منه ما رأى منى ، فأنست إليه ، وألفت صحبته ... ولم يمض على ذلك ثلاثة أسابيع حتى كنا زوجين . وكان والدى قد أمر إليه بزواجى السابق وأخبره أن الرجل قد مات ، ولكنه لم ينبس أمامه ببنت شفة عن أصله ولا عن موطنه

ومضى علينا زمن رفت فيه علينا ظلال الأمن ورفرفت فوقنا أجنحة السعادة ، إلى أن رزقنا الله طفلة أسميناها آن روز ، تجمع إلى رائع قسماتها ، وجميل ملامحها ، صهبة شعرى ، وصفاء عينى أبيها

وكان اتساع أعمال جيرالد يتطلب منه طول التجوال ، ودوام الترحال ، ولم أتمكن من استصحابه فى أسفاره ، حالما كانت آن صغيرة ؛ فلما شبت وترعرعت ، كنت أتركها تحت عين المربية ، حتى نعود من سفراتنا

ولما بلغت آن السابعة من عمرها ، أدركت والدى المنية ، ولم تلبث والدتى أن لحقت به بعد بضع سنوات

* * *

ومضت الأيام إثر الأيام ، والسنين تلو السنين إلى أن كان يوم من أيام الصيف ، أخبرنى فيه جيرالد أن أعماله تضطره إلى السفر إلى شنغهاى لانجاز بعض مهام الشركة فى الصين ، وزاد على ذلك أن مدير الشركة رجا منه أن تزامل كريمته مارى وحيدتنا آن فى رحلتها

وبعد أيام كنا فى طريقنا . وكانت مارى تكبر آن بعدة سنين ، ولكنهما تآلفا تآلف الأخوات وتعلقت كل منهما صاحبتها

وبلغنا شنغهاى فقابلنا « ولارد كاين » وهو صديق قديم لجيرالد ، وكانت معه زوجته وأخوها السيد جورج بابلى ، فدعونا للاقامة معهم فى منزلهم الريفى فى الضواحى ريثما ينجز جيرالد أعماله ويعود إلينا فى نهاية الأسبوع . فلبينا الدعوة وكان المنزل صغيراً جميلاً ، تحيط به الحدائق من كل صوب ، وتلتف به مروج السهول ، ويجرى من تحته نهر رائق الماء عذب المورد

وعلى الرغم من كل ذلك فانى كنت أوثر سكنى المدينة ؛ ففيها تأنس نفسى ، ويسكن قلبى ، وابتعد عن تلك المشاهد المؤثرة ... فطالما كنت أرقب الصينيين صاعدين إلى ذروة التل ، أو هابطين إلى قرارة السهل ، وقد أضناهم الجوع والفوا بطونهم من الطوى . وكان يقول لى خادمنا يونج :

— إنهم جياع ياسيدتى ... يبحثون عما يتبلغون به ...

وخرجنا ذات يوم لزيارة ذلك المعبد العتيق القائم على ضفة النهر فقال يونج ... إنه غاص بالكهوف والمخابئ ... التى سيلجأ إليها هؤلاء الجياع عندما يقومون بثورتهم ليتحرزوا بها من أعدائهم

وقد قابلنا أحد هؤلاء الجياع عند ضفة النهر فسألنا عما إذا كنا إنجليزاً ، وأخذت آن تضحك منه وتتحدث معه برهة ثم سألته عن اسمه فقال : واه بو

* * *

وفى صباح اليوم التالى بينما كنت فى حديقة المنزل ، وقع نظرى فجأة على واه بو وزميل له يحدقان فى وجهى بفضول عجيب فلما رآنى واه بو

ابتسم وأشار إلى زميله قائلا :

— صديق لى هانج ياسيدتى

وكانت عينا لى هنج الضيقتان مصوبتين إلىّ كأنهما قطعتان سوداوان من الزجاج ... وهنا أحسست بالوحشة ... وبدأت تتمثل أمامى مخاوف الصين ، وهممت بالنكوص على عقبى إلى المنزل ، فقد كانت عينا لى هنج كأبرتين استقرتا فى فؤادى . مرعان ما تحول هو وصديقه ومضيا لسبيلهما فعدت إلى المنزل أجر ساقىّ جرا

وقد رأيته مرة أخرى مع جورج بابلى فقال لى باسماً :

— يقال إن لى هانج هذا نصف انجليزى

— نصف انجليزى ؟

— أجل ... فقد كان والده أستاذاً فى جامعة بكين ... ومات وهو طفل ... فنشأ يائساً طريداً ... وأحسست فى هذه اللحظة أن الأرض تدور من حولى ، وأن رأسى يثقل علىّ رويداً رويدا ؛ فاستأذنت وقصدت غرفتى فلم أنم تلك الليلة ، ولم يطرق السكرى جفنى ، فتنازعتنى الهموم ، وتخالجتنى الوساوس ... ما أشقانى ... لقد جنيت عليه ... يا إلهى أهذا جزاء ما قدمت يداى ؟ ... أترى سقتنى إلى هنا ليقتلنى مبرح الألم ولأنال صارم الجزاء ؟

وخرجت إلى ضفة النهر ، حين تنفس الصبح أنشد النسيان على ضفافه النضيرة . ولشد ما كانت دهشتى عندما وجدت نفسى أمام لى هانج وجهاً لوجه ... ولقد أرعبنى منظره ، وأخافتنى عيناه فهتفت فى صوت مخنوق :

— إذهب ... إذهب عنى بعيداً ... فقال فى هدوء :

— إننى لست كلباً ياسيدتى فأطرد كما تطرد الكلاب ...

فقلت وأنا أغالب الدمع :

— إذن ، إذن ما الذى تريد منى ؟ ...

فقال فى سكون :

— لا شىء ياسيدتى ... إلا أن أخبرك أننى أحتقر كل الانجليز ، ولوددت والله لو كانت رقابهم طوع يمينى ... إذن لما أبقيت عليهم

ثم استدار على عقبيه دون أن ينبس ببنت شفة ، ومضى لسبيله على ضفة النهر وأنا جامدة فى مكانى أتابعه بنظرى وهو يبتعد عنى رويداً .. رويدا

وإذا بنظرى يقع فجأة على ستة رجال يمثلون أمامه فى هيبة وجلال لم أثبت معرفة أحداً منهم سوى راه بو . وقد رأيت (لى) يتحدث معهم لحظة ثم يومىء لهم بطرف البنان إلى آن وماري وكانتا تتضاحكان على ضفة النهر ، وقد جاس يونج على كثب منهما ، وأسرع الرجال تلبية لأوامر زعيمهم فأحاطوا بالفتاتين ... وانتبه يونج فأسرع إليهما فلطمه أحد الرجال ... وسمعت فى هذه اللحظة صوت لى هانج قائلاً :

— هيا ... هيا اسرعوا بهما

وألجم الخوف لسانى ، وأسقط فى يدى ، وحاولت الصياح ، فلم أسمع صيحتى ، وأخيراً أسرعت إلى هنج متوسلة :

— لى هانج ... لاتفعل ذلك ... رفقاً بى ... لا تفعل ذلك ياهانج . فتوقف عن السير لحظة ثم نظر إلىّ وكانت عيناه كعيون الموتى شاخصة لا تتحرك ، جامدة لا تطرف ... ثم قال :

— غداً سيعود زوجك من شنغهاى ... خذى منه الفدية ... وسأرسل لكما راه بو غداً

ووصلت السيدة كاين على صوت صراخ الفتيات وعويلهن .. فأسرعت إليهما ، ولكن الرجال وقفوا فى سبيلها فصاحت فيهم :

— سيكون الموت جزاءكم على هذا أيها المجرمون

وكانت آن تناديني وهى تصرخ باكية بين حين وآخر ... فطار صوابى وألقيت بنفسى على هانج فدفعنى بيده قائلاً :

— تنحى عنى أيتها المرأة ... جهزى المال غداً فتعاد إليك الفتاتان

— هانج ... ! أصغ إلىّ ... لحظة واحدة يا هانج ... فدفعنى ثانية ؛ ولكنى تشبثت به قائلة :

— هانج ! لا يمكن أن تفعل ذلك ... إنى أمك يا هانج ... إنها أختك هذه التى بين يدى الرجال ... هانج ...

وأخذنى الذهول ... ودارت بى الأرض والفضاء . ثم سقطت مغشياً علىّ

* * *

عندما أفقت من الاغماء كنت راقدة على السرير وبجانبى السيدة كاين التى كانت لى نعم الأخت البارة ، فأخذت تسرى عنى ، وتطمأننى على الفتاتين ، ثم قالت إن أخاهما خرج للبحث عنهما

وفى ظهر اليوم التالى وصل جيرالد والسيد كاين ... وكان يونج قد طلع عليهما بجلية الخبر ، فتطير جيرالد وجزع كاين ، ورفضا الانتظار ريثما يصل رسول هانج ، فخرجنا جميعاً ووجهتنا ذلك المعبد الذى اتخذه هؤلاء الأشرار حصناً يتحصنون به ، وملجأ يتحرزون فيه من غارة المغير وهجوم العادى ... وبلغنا المعبد . وما إن توغلنا فى مماشيه المظلمة وفى مسالكه الداجية ، حتى أحاط بنا فجأة ستة رجال ، ولكنى دفعتهم فى شدة وشققت طريقى الى لى هانج سائلة :

أين هما يا هانج ... أين الفتاتان ؟

وفى تلك اللحظة برز (واهو) بين صخور المعبد وهو يحجز بذراعيه الفتاتين فأسرع إليه أحد الرجال ليعينه على إعادتهما إلى مخبأهما ، فتملك جيرالد الغضب وطار لبه ، وفقد صوابه ، فقبض على مسدسه وصوبه إلى ذلك الرجل ، ثم أطلق عليه النار ، فأرداه قتيلاً يتضرج بدمائه

ثم حمى وطيس المعركة بين جيرالد وكابن وبين الصينيين ، وظل القتال سجالاً إلى أن تغلب العدد على القوة ، فاستسلم جيرالد ، ولطف من كبريائه ، وخفف من غلوائه ، ووقف مغيظاً محنقاً ... وهو ينظر إليهم شزراً ... والتقت عيناى بعينى هانج وكانتا تشعان ببريق الحزن والعطف ثم قالت :

— أتوسل اليك يا هانج لا تمسهما بسوء

وهنا لم يطق جيرالد أن يرانى أتوسل الى ذلك الرجل فقال :

— أتتوسلين إلى ذلك المجرم ياروز ؟ ثم اندفع إلى هانج فى غضب ولطمه لطمة قوية . فابتسم هانج ولم يتململ فى جلسته ، ولم تنفرج شفتاه عن كلمة ما ، بل ظل جامداً هادئاً ... وشهد الرجال ما حل بزعيمهم . فملأهم الغضب ، وأخذتهم الحمية ، فصوب أحدهم مسدسه الى جيرالد ، وهم باطلاق النار ، ولكن هانج كان أسرع منه ، فألقى بنفسه فى طريق الطلق ، واعترضه بصدره قبل أن يصل إلى جيرالد ، فنفذت الرصاصة فى أضلعه ، واستقرت فى قلبه

وسقط لى هانج فالتف حوله الرجال ، ونظرت اليه فاذا الألم يملأ عينيه وهو يحدق فى وجهى فى صمت ... ثم غمغم إلى رجاله ببضع كلمات لا تخلو من لهجة الآمر ، فانطلق منهم اثنان ، ثم عادا بعد برهة قصيرة ومعهما الفتاتان ... واندفعت الى آن تطوقنى بذراعيها ... ووقع بصرى من فوق كتفها فجأة على هانج وهو يحاول أن يدير رأسه فى ألم لينظر الى ... وكأن الألم قد أذبل جفنيه ، وأطفأ بريق عينيه ، وغمر وجهه فبدأ ساهماً حزيناً

وإلى هذه اللحظة لم يكن يعلم جيرالد شيئاً عن حقيقة هذا الشاب الكريم الذى يلفظ أنفاسه تحت أقدامه بعد أن لقى حتفه فى سبيل انقاذ حياته على الرغم من أنه أساء اليه

ونسيت هذه اللحظة كل شئ فى العالم ، إلا هاتين العينين الواد عتين اللتين تنظران إلىّ فى حزن ، والا ذلك الوجه الشاحب الذى أذبله الموت وملأه الأسى ، فركعت بجانبه ورفعت رأسه على ذراعى فابتسم هامساً فى كلمات متقطعة :

— عفواً يا سيدتى ... لقد ... كان عملاً جنونياً ... إننى ... لم أسىء ... إليهما ... ولكن حقاً ما كان أقسانى أن أفرق بين الأم وفلذة كبدها ... عفواً يا سيدتى إننى لست ... جديراً ... أن تمسينى ... بيدك ... الكريمة ...

وشعرت فى هذه اللحظة أن قلبى يكاد يقطعه الأسى ، ويغرقه الحزن ، فرفعت رأسى إلى جيرالد ، فجثا بجانبى ، وكان شاحب الوجه غائر العينين ، فقلت له :

— جيرالد ... لقد أنقذ هذا الفتى حياتك ... أفلا تشيعه بكلمة شكر تخفف عن نفسه ألم الجرح ووطأة الموت ...

ثم اندفعت أقول فى حزن :

— جيرالد ... ان أكتمك شيئاً ... إنه ابنى ياجيرالد ... ابن (هارى لى) ، فارتفع حاجبا جيرالد من الدهشة ، واتسعت حدقتاه ...

حقاً لقد كان من القسوة أن أجابهه بهذه الحقيقة المؤلمة فى ذلك الظرف العصيب ... وقال فى تردد :

— أكان ... أكان هارى لى صينيا ؟

— أجل ... وكان رجلاً كريماً

وفى تلك اللحظة رأيت شفتى هانج الذابلتين تهمسان فى ألم :

— كم أنت .. كريمة .. ياسيدتى .. إن والدى

يرقد فى بكين . . وأود أن . . أرقد فى جواره . . فقلت له :

— سيكون لك ذلك يا هانج

ونسى جيرالد كل شيء إلا أنه فى حضرة شاب يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديه ، بعد أن نجاه من الهلاك ؛ فانحنى عليه فى رفق ، وأخذ يمسح عنه العرق المتصبب من جبهته

وخفضت بصرى فاذا عينا هانج الحزينتان لا تحولان عن وجهى ، وكأنهما سهام مسددة إلى صميم فؤادى ... يا إلهى لماذا أتيت من أقصى العالم إلى هنا ؟ . . . ألتشهد الأم الجاحدة مصرع ابنها الطريد ! . . . أم ليلفظ الابن أنفاسه الأخيرة بين ذراعى أمه ... هاتان الذراعان الجاحدتان اللتان نبذتاه طفلاً ، وتحتاه وليداً

ومررت بيدى على جبهته الباردة ... فابتسم قائلاً فى صوت خافت :

— سيدتى الكريمة ...

ثم أطبق شفتيه الذابلتين ، وأغمض عينيه الصافيتين ، ومال برأسه الشاحب الى الخلف

وقام جيرالد فرفعه من بين ذراعى ، فقلت له وأنا أغالب الدمع :

— يجب أن يرقد ذلك الفتى بجانب أبيه يا جيرالد

— سأعمل على ذلك يا روز

وعدنا إلى المنزل ، وأنا ذاهلة تماماً عما حولى ، لا أعى شيئاً ، ولا أدرك قولاً ، وبعد أيام أعددنا عدتنا وأخذنا أهبتنا ، وعدنا إلى شنغهاى ، ثم قصدنا لترا الى الباخرة ، فلما وطأتها أقدامنا نظر الى جيرالد قائلاً :

— روز ... قبل أن نغادر الصين .. يجب أن تعلمى أنى قمت بما ترغبين . . . انه يرقد الآن بجوار والده

— شكراً لك ياجيرالد

* * *

وعدنا الى الوطن العزيز ، ومضت الأيام تتبع الأيام ، والشهور تترسم خطى الشهور ، الى أن كان يوم أدهشتنى فيه آن بقولها :

والدتى ... ان شبح لى هانج لا يزال ماثلاً فى خاطرى .... لقد سمعت والدى يقول : (يجب أن ننساه) . ولكن لماذا ننساه ؟ أليس هو الذى أنقذ حياته ؟ لقد كان نبيلا حقاً ياوالدتى . فعندما أخذونا اليه أكرم وفادتنا ، وكثيراً ما كان يجلس الى قائلا : أختى الصغيرة .. كم أنت جميلة كزهرة التفاح ! ولما جن الليل تنحى لنا عن مرقده وافترش هو الأرض . . كم أنا حزينة عليه ياوالدتى ! . . وكم أحاول نسيانه فلا يسعدنى القلب !

فنظرت اليها فى عطف ... ثم قلت لها وأنا أغالب الدمع :

— حقاً يا آن ... لقد كان شاباً نبيلاً ما

أحمد فتحى مرسى

قصص اجتماعية

مترجمة بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

مجموعة من القصص الرفيع الشائق لثمانية من أعلام الأدب الفرنسى هم : بورجيه . كوبيه . أناتول فرانس . موباسان . تيرييه . مارسل بريفو . دى بانفيل . جان لوران . مع تراجمهم النقدية . ومترجمة بأسلوب فائق . فى ثلاثمائة صفحة طبع دار الكتب

ثمنه ١٠ قروش ويباع مؤقتاً بـ ٦ قروش بخصم ٤٠ ٪ عدا البريد وهو قرشان لداخل القطر وأربعة خارجه ويطلب من إدارة الرسالة وجميع المكاتب